

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَغَضِبَ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ

عصا
كفر
ذاته ومقتله
أعنه
فضل ليس
محظ

يتجه الخطاب في هذه الآية الكريمة إلى بني إسرائيل مباشرة فيطلب منهم والمراد آباؤهم لأن الفضل على الآباء فضل على الأبناء، أن يذكروا ما قالوا لموسى عليه السلام في التيه (١) بأنهم لن يصبروا على طعام واحد وهو المن والسلوى وقد عبر عنهما بالطعام الواحد لأنهم كانوا يأكلون الواحد بالآخر أو بسبب استمراره وعدم تغيره . ومن ثم هم طلبوا من موسى عليه السلام الذي يخاطبونه دائماً وابدأ في هذه الطريقة الجافة «يا موسى» أن يدعو ربه هو ، بسبب منزلته الرفيعة عند بارئيه جل وعلا ، بأن يخرج لهم وهم أهل الفلاحة ، مما تنبت الأرض من بقلها وهو النبات غير ذى الساق (٢) وقثائها ، وفومها وهو البر أو الحنطة في أغلب الآراء لكونه طعاماً رئيسياً لا يستغنى عنه (٣) . أو هو الثوم ، قلبت فيه الثاء فاءاً ، والثوم مجانس للبصل وللعدس . وقد نصوا على طلب البصل كذلك .

وازاء سعي بني إسرائيل وراء الشقاء حيث إنهم طلبوا يحتاج إلى حرث وزرع بينما المن والسلوى هبة من الله تعالى لهم وهما خير مما طلبوا ، لذا أنكر موسى عليه السلام هذا الطلب منهم سائلاً في انكار : «أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟» أي أتستبدلون الذي هو أدنى قيمة ، أو أقرب إلى الدناءة ، أو احط بالذي هو خير؟

(١) تفسير القرطبي ص ٣٥٩ والبحر المحيط ٢٣١/١ والكشاف ٢١٨/١ .

(٢) تفسير القرطبي ص ٣٦١ . (٣) تفسير القرطبي ص ٣٦٢ .

وبما أنهم اصرروا على تفضيل الذي هو أدنى واستبداله بالذي هو خير لذا فقد قيل لهم اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم. فبما أنهم في التيه ويتجهون إلى الشام وهي أرض خيرات وما طلبوا من طعام بسيط مظنة أن يتحقق وجوده في أي مصر من أمصار الشام، خاصة إذا فسر القوم بالثوم، لذلك طلب منهم أن يهبطوا أي مصر من أمصار الشام كي يجدوا طِلْبَتَهُمْ من الطعام .

وبما أن اتجاه نفوسهم إلى الأدنى باستمرار ، فإنهم ابتداء باستبدال الطعام الذي هو أدنى بالذي هو خير ، قد استمروا في هبوطهم إذ لم يشكروا النعمة وإنما كفروها فعصوا الله تعالى ، وترتب على عصيانه جل وعلا ذنب آخر هو كفرانهم بآيات الله تعالى وترتب على كفرانهم بآيات الله تعالى عقاب إليم دائم من الله تعالى هو أنهم قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة . أما الذلة فمن الذل . وأما المسكنة فمن السكون بمعنى الخضوع الناجم عن الفقر، فقر النفوس في المقام الأول .

بل إن العقاب من الله تعالى عليهم في هذه الدنيا قبل الآخرة لم يقف عند ملازمة الذلة والمسكنة لهم ، إنما تجاوزهما إلى كونهم قد باؤا بغضب من الله تعالى . وإنما رجعوا بغضب من الله تعالى لأنهم كانوا يقتلون النبيين بغير الحق ، بمعنى لو أنهم سئلوا لم قتلتم أنبياء الله تعالى لما عرفوا لذلك سبباً ولكنه الطغيان والإفساد في الأرض والعلو الكبير . وكان قتلهم أنبياء الله تعالى ثمرة العدوان المتأصلة فيهم . وهكذا نتبين أن كل ثلاثة أمور يبني بعضها على بعض . عصيان فكفر بآيات الله تعالى ف ضرب الذلة والمسكنة عليهم . اعتداء فقتلهم الأنبياء بغير حق فرجوع بغضب من الله تعالى . هذه هي صفات بني إسرائيل بنص الكتاب العزيز .

﴿٦٢﴾
 إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِئِينَ مَنْ
 ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
 رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

الذين آمنوا : أي صدقوا بمحمد ﷺ . والذين هادوا : أي صاروا يهودا . نسبوا
 إلى يهوذا . وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام . فقلبت العرب الذال دالا لأن الاعجمية
 إذا عربت غيرت عن لفظها ، وقيل : سموا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . هاد : تاب .
 والهائد التائب . وفي التنزيل : « إنا هدنا إليك » أي تبنا^(١) . والنصارى جمع واحد
 نصراني . قيل : سموا بذلك لقرية تسمى ناصرة كان ينزلها عيسى عليه السلام فنسب
 إليها فقيل : عيسى الناصر . فلما نسب أصحابه إليه قيل : النصارى . قاله ابن عباس
 وقتادة . والصابئين جمع صائب . من صبأت النجوم إذا طلعت . وصبأت ثنية الغلام إذا
 خرجت . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب . فهم فرقة من أهل الكتاب^(٢) :
 « والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض علمائنا أنهم موحدون معتقدون تأثر
 النجوم وأنها فعالة »^(٣) .

هذه الآية الكريمة يبين فيها رب العزة أن الذين صدقوا بمحمد ﷺ والذين صدقوا
 بموسى عليه السلام وهم اليهود ، والذين صدقوا بعيسى عليه السلام وهم النصارى ،
 والصابئين ، وهم فرقة موحدة من أهل الكتاب ، والذين يؤمنون من هؤلاء بالله تعالى
 وباليوم الآخر ويدخل في ذلك الإيمان بالملائكة والكتب والرسل ، وعمل صالحاً وفق
 علمه فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

« روى عن ابن عباس أن قوله : إن الذين آمنوا والذين هادوا الآية منسوخ بقوله
 تعالى : ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه الآية وقال غيره : ليست بمنسوخة ،
 وهي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبي على السلام »^(٤) .

(٢) انظر تفسير القرطبي ص ٣٧٠ .

(١) تفسير القرطبي ص ٣٦٨ .

(٣) تفسير القرطبي ص ٣٧٠ .

(٤) تفسير القرطبي ص ٣٧١ وانظر البحر المحيط ٢٤٠/١ .

﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آبَائِنَا فِي
بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ

هذا هو الإناعام العاشر^(١) على بني إسرائيل . والمعنى أذكروا إذ أخذنا ميثاقكم
ورفعنا فوقكم الطور، وهو اسم للجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل
عليه فيه التوراة دون غيره^(٢) وهذه الآية تفسر قوله تعالى من سورة الأعراف^(٣) : « وإذ
ننقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه
لعلكم تتقون . قال أبو عبيد : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه^(٤) .

القول في سبب رفع الطور :

وذلك أن موسى عليه السلام لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة
قال لهم : خذوها والتزموها فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة فكبرت عليهم
وأبوا قبولها فأمر جبريل فقلع الطور من أصله ورفع وظلله فوقهم وقال لهم موسى : إن
قبلتم وإلا ألقى عليكم حتى قبلوا^(٥) فقبل لهم خذوا الكتاب السماوي الذي أعطيناكم إياه
بجد واجتهاد ، وأذكروا ما فيه تلاوة وتدبراً وعملاً بتعاليمه . إنهم بهذه الأعمال لعلهم
يتقون عذاب الله تعالى . ويبدو أنهم تمسكوا بتلك التعاليم إلى حين بدليل استعمال الآية
الكريمة لفظة « ثم » التي تفيد الترتيب مع شيء من التراخي وذلك في القول : « ثم توليتم
من بعد ذلك » والمراد من بعد البرهان وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل^(٦) فلولا فضل الله
تعالى على بني إسرائيل الذي تداركهم ، بتوفيقكم للتوبة ورحمته بقبوله توبتكم لكنتم من
الخاسرين أي الهالكين .

(٢) أنظر تفسير القرطبي ص ٣٧١ .

(٤) تفسير القرطبي ص ٣٧١ .

(٦) تفسير القرطبي ص ٣٧٣ .

(١) البحر المحيط ٢٤٢/١

(٣) الآية ١٧١

(٥) الكشف ٢١٩/١ .

(٧) أنظر البحر المحيط ٢٤٥/١ والجلالين .

﴿٦٦﴾ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ
كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا
وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ

في هاتين الآيتين الكريميتين يخاطب رب العزة بني اسرائيل في أسلوب مؤكد حيث إن التأكيد تفيد لام القسم من القول : ولقد^(١) بأنهم على علم تام بأسلافهم الذين أمرهم الله تعالى بأن يخصصوا يوم السبت لعبادة الله تعالى وألا ينشغلوا بأي وجه من وجوه المصالح الدنيوية . ومع ذلك فإنهم قد تجاوزوا الحد في يوم السبت ، وإلى ذلك التجاوز أشار قوله تعالى من سورة الأعراف^(٢) : « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يستون لا تأتيتهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » فأهل قرية أيلة على بحر القلزم^(٣) بسبب فسقهم واعتدائهم في السبت ابتلاهم الله تعالى بأن تأتيتهم في يوم السبت المخصص للعبادة حيتانهم ظاهرة على الماء ، أما في غير يوم السبت فإنها لا تأتيتهم . فتحايلوا أول الأمر على ادخال الحيتان يوم السبت في حياض وحفائر عملوها كي يصطادوها فيما بعد يوم السبت^(٤) « وكثر ذلك حتى صادوه يوم السبت علانية وباعوه في الأسواق . فكان هذا من أعظم الاعتداء »^(٥) وقد انتقم الله تعالى منهم بأن مسخهم قردة صاغرين مطرودين . « وجمهور المفسرين على أن الذين مسخهم الله لم يأكلوا ولم يشربوا ولم ينسلوا بل ماتوا جميعاً وأنهم لم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيام »^(٦) .

وقد جعل الله تعالى هذه العقوبة زجراً للقرى المعاصرة والتالية لها زمنياً كيلا تتورط في الاعتداء الذي تورط فيه الذين اعتدوا في السبت . أما المتقون فإن في هذه العقوبة موعظة وتذكيراً بالخير مما يرق له القلب .

- | | | | |
|-----|-----------------------------------|-----|--------------------------------------|
| (١) | أنظر البحر المحيط ٢٤٥/١ والجلالين | (٢) | الآية ١٦٣ |
| (٣) | البحر المحيط ٢٤٦/١ ومعجم البلدان | (٤) | أنظر الكشف ٢١٩/١ والبحر المحيط ٢٤٥/١ |
| (٥) | البحر المحيط ٢٤٥/١ | (٦) | البحر المحيط ٢٤٦/١ |

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً
قَالُوا أَنْتَخَذْنَاهُ زُحُورًا قَالْ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ

بهذه الآية الكريمة تبدأ الآيات في قصة البقرة . وهي آيات تستمر في الدلالة على غلظ طبع بني اسرائيل وحمقهم وسوء ظنهم بنبيهم موسى عليه السلام . إن موسى عليه السلام قال لقومه بني اسرائيل : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . فما هو المطلوب من الأتباع أن يفعلوا ان كانوا مصدقين رسول الله تعالى إليهم ؟ الامتثال المطلق . لننظر إلى رد بني اسرائيل على نبيهم ؟ قالوا أنتخذنا هزوا أي أنتخذنا لعبا وسخرية . وهل يعقل أن يصدر اللعب والسخرية من أحد رسل الله تعالى ؟ لا لا يمكن أن يصدر ذلك من أحد رسل الله تعالى وإن خفيت على الأتباع حكمة التكليف ، لأن المطلوب منهم الاتباع المطلق . ولعل بني اسرائيل أقلقهم أن يؤمروا بذبح البقرة ، وهي من جنس العجل الذي أشربت قلوبهم حبه . ولعلهم لم يتبينوا العلاقة بين طلبهم من موسى عليه السلام أن يسأل ربه جل وعلا بأن يبين لهم القاتل لأحدهم وبين ذبح البقرة وقد تبين لهم بعد ذلك أن القاتل قد ضرب ببعضها فحبي القاتل ، بإرادة الله تعالى ، بذلك البعض من البقرة الميتة ذبحاً . ويقال وراء ذلك إن البقرة التي ذبحوها أخيراً يمتلكها ابن بار بوالدته .

وفي كل الأحوال يظل تعنت بني اسرائيل في حوارهم مع موسى عليه السلام يدل على جفائهم وغلظ طبائعهم ولهذا كان من موسى عليه السلام الرد عليهم المشير إلى حمقهم وسوء ظنهم برسول الله تعالى إليهم « قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » ان السخرية والاستهزاء بالسائل الطالب للارشاد من قبل المسئول الذي وظيفته الارشاد يعتبر حمقاً وسفهاً . فلولا أن هذه الصفة في السائلين لما جرؤا على إلصاقها علانية بواحد من أكبر رسل الله تعالى إلى بني اسرائيل . ولهذا استعاذ موسى عليه السلام بالله تعالى أن يكون من الجاهلين ، السفهاء الحمقى الذين يعتبر قومه المنكرون عليه طبيعة ذلك الأمر من الله تعالى ، عمادهم وقوامهم ، والآ لما خطر ببالهم شيء من سخف قولهم ، ولبادروا إلى فعل ما أمروا به روي الحسن مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفس محمد بيده لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم » (١) .

﴿٢٨﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ

كان من واجب بني اسرائيل أن يذبحوا بقرة، أي بقرة، بعد أن فهموا أن موسى عليه السلام إنما أمرهم بما أوحى الله تعالى به إليه. ولكنهم متعنتون دائماً. وهامهم أولاء يخاطبون موسى عليه السلام في طريقة فيها من الجفاف شيء غير قليل: «قالوا أدع لنا ربك» إنهم لا يقولون مثلاً أدع لنا ربنا. وهم يريدون الآن أن يقفوا على بعض صفات هذه البقرة: «قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هي» وهذا هو الجواب وقد سأل موسى عليه السلام ربه أن يبين له ما هي البقرة. «قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون» إنهم بتشددهم في الأسئلة شدد الله تعالى عليهم فطلب منهم أن يذبحوا بقرة أحسن ما تكون عمراً، إنها من ناحية ليست مسنة ولدت بطوناً كثيرة. ومن ناحية أخرى ليست صغيرة لم تحمل. إنما هي النصف التي قد ولدت بطناً أو بطنين، وهي أقوى ما تكون من البقره وأحسنه^(١) إنها وسط بين الفارض التي ولدت مرات والبكر التي لم تلد، إنها العوان التي ولدت مرة بعد مرة.

وقد أردف هذا التبيين لطبيعة البقرة من ناحية سنّها بأمر موسى عليه السلام بني اسرائيل بأن يفعلوا ما يؤمرون بأن يذبحوا فوراً البقرة العوان ويلاحظ أن الآية الكريمة يجيء فيها ذكر لفظ البقرة صراحة ولا يستغنى عنه باسم الضمير، «قال إنه يقول إنها بقرة...» وكأن بني اسرائيل لا يكادون يفقهون بغير هذه الطريقة التفصيلية فتضيف الآية إلى لفظه «بقرة» التي جاءت من قبل، بعض صفات هذه البقرة.

(١) تفسير القرطبي ص ٣٨٢.

قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ

بعد أن عرف قوم موسى عليه السلام سن البقرة وطلب منهم أن يفعلوا ما يؤمرون، كان المنتظر منهم أن يذبحوا أي بقرة هذه سنها. ولكنهم لانتواء فطرهم ونقص عقولهم أرادوا أن يعرفوا لون هذه البقرة. وسأل موسى عليه السلام ربه جل وعلا عن لون البقرة وكان الجواب «صفراء فاقع لونها تسر الناظرين» ويلاحظ أن الحديث عن لون البقرة يجيء متقلبا على كل الأوجه الممكنة، وكأنه يراد به سد كل المنافذ التي يمكن لبني إسرائيل الملحقين في الأسئلة إن ينفذوا منها. إن البقرة من ناحية صفراء وهذه الصفة في ذاتها كافية للرد على السؤال المطروح ولكن القوم ملحفون في الأسئلة فالبقرة من ناحية أخرى فاقع لونها. ومن ناحية ثالثة هي تسر الناظرين. واللون الفاقع هو الشديد الصفرة.

وإذا كان يفهم من الحديث عن اللون أنه للتوضيح، فإنه يفهم منه كذلك أنه متمشٍ مع نفسية قوم موسى الراغبة في التشديد. فلعل المتوقع أن الجواب لو وقف عند تبين طبيعة اللون من كونه أصفر لسألوا هل هو شديد الصفرة أو غير شديدها. هل هو صاف أم غير صاف. ولو فرض أن اللون وصف بأنه أصفر فاقع، فمن الجائز أن يتساءل بنو إسرائيل عن الحكمة من اختيار هذه اللون وطبيعته. إن الجواب كما قلنا يتمشى مع نفسية قوم موسى الملتوية ورغبتهم في التشديد، وسد لما يمكن من المنافذ التي يمكن أن يتسللوا إليها بأسئلتهم والحافهم فيها.

قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ

بعد أن سأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام عن سن البقرة ولونها، تبين لهم أن ثمة الكثير من البقر التي تتشابه في السن واللون، لذلك سألوا عن عمل هذه البقرة : هل هي سائمة أم عاملة ؟ ويبدو أنهم فطنوا إلى تعنتهم الذي ندموا عليه ، وإلى فقرهم الشديد إلى عناية البر الرحيم بهم فاستدركوا قائلين : « وإنا إن شاء الله لمهتدون » « روي عن النبي ﷺ أنه قال : لو ما استثنوا ما اهتدوا إليه أبداً » (١) .

(١) تفسير القرطبي ص ٣٨٤ .

﴿٧١﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَيْنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ

ولموسى

بعد أن طلب قوم موسى عليه السلام منه معرفة عمل هذه البقرة، دعا ربه عز وجل أن يبين لهم بعض الصفات التي تنقصهم. وكان الجواب أنها بقرة وحشية^(١) غير ذلول بإثارة الأرض أو سقي الحرت. إن هذه البقرة لم يذلها العمل بتهيئة الأرض للزراع أو سقى هذه الأرض بعد أن زرعت. ثم هي مسلمة من كل العيوب، فليس نفي إثارة الأرض عنها أو سقيها عائداً إلى عيب فيها، ثم هي أخيراً ليس فيها لون يخالف معظم لونها. هي صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد^(٢).

وبما أن كل الأسباب التي حالت بين بني إسرائيل وبين ذبح البقرة قد زالت، لذا قالوا لموسى عليه السلام: الآن جئت بالحق. والمراد هذا الوقت جئت بحقيقة وصف البقرة وما بقي إشكال في أمرها^(٣) ومن ثم ذبح بنو إسرائيل البقرة.

وقد جاء في الآية الكريمة تعقيب على القصة. قال تعالى: «فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» والمراد نفي مقاربة ذبح بني إسرائيل للبقرة. إن كاد يفيد المقاربة، ودخل عليه ما النافية «المنعنى»: وما قاربوا ذبحها قبل ذلك. أي وقع الذبح بعد أن تفني مقاربته. فالمنعنى أنهم تعسروا في ذبحها ثم ذبحوها بعد ذلك^(٤).

نفي

(١) تفسير القرطبي ص ٣٨٥.

(٢) أنظر تفسير القرطبي ص ٣٨٦.

(٣) الكشف ٢٢١/١.

(٤) البحر المحيط ٢٥٨/١.

﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءُتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ. فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ
الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

الآيتان الكريمتان تتكون منهما احداث قصة ذات علاقة بآيات البقرة السابقة، وذلك ان الضمير من القول « بيعضها » يعود إلى البقرة التي ذبحها قوم موسى أخيراً. ان المطلوب من بني اسرائيل أن يذكروا إذ قتلوا على عهد موسى عليه السلام نفساً فتخالفوا وتنازعوا بشأنها كل يدفع عن نفسه تهمة القتل التي يطرحها عليه الطرف الآخر. إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخرج ما كانوا يكتُمون من أمر القتل.

وقد شاءت العناية الإلهية أن تضرب المثل الحي على قدرة الله تعالى المطلقة على إحياء الموتي فقد حيي القتل ببعض أجزاء البقرة الميتة ذبحاً، فعلى كل العباد ان يؤمنوا بأن بعد الموت بعثاً فحساباً فجزاء، ثواباً أو عقاباً. لقد أمرهم الله تعالى أن يضربوا القتل ببعض تلك البقرة، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك البعض، وان كان يصح انه ذنبها، « فلما ضرب به حيي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتاً كما كان »^(١) ان المطلوب من بني اسرائيل ومن غير بني اسرائيل أن ينتفعوا من نعمة العقل بأن يحسنوا استخدامه. ان العقل يقول في حقنا نحن البشر العاجزين، ان القادر على إيجاد الشيء للمرة الأولى قادر على إيجاداه مرة ثانية. نقول هذا بلغتنا نحن البشر وإلا فإن الإيجاد في كل مرة، سواء في حق الذات العلية.

(١) تفسير القرطبي ص ٣٨٨.

﴿٧١﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً
وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ
مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

بعد النعم الجسام التي امتن الله تعالى بها على بني اسرائيل ، وبعد الآيات العظام التي أبصروها ومنها إحياء الموتى ، كان المفروض في قلوب بني اسرائيل أن تكون أكثر قلوب العباد خشية لله تعالى وأن تلازمها تلك الخشية . والعجيب في أمر قلوب القوم أنها بدلاً من أن تلين قست ، واستمرت آخذة في طريق القسوة الخاطيء حتى غدت في قسوة الحجارة التي لا يميزها شيء كالقسوة ، بل إن قلوب القوم غدت أشد قسوة من الحجارة .

ثم تقارن الآية الكريمة بين الحجارة التي قد يصدر منها الخير وقد تلين وترق . وبين قلوب بني اسرائيل التي لا تلين ولا ترق والتي لا يكاد الخير يجد منفذاً إليها . فمن هذه الحجارة ما يتفجر منه الأنهار ويندفع منها الماء بقوة وغزارة . ويلاحظ طواعية هذا النوع من الحجارة للماء المندفع فلا يقف حاجزاً دونه ، وفي الوقت ذاته لا يبذل هذا النوع من الحجارة أي مجهود ، إنما هو الذي يتفجر من خروق الحجارة الواسعة . ومن هذه الحجارة ما ينفع انفعالاً يسيراً فيقوم ببعض المجهود بأن يتشقق طولاً أو عرضاً ، وبذلك يتيح للماء أن يخرج ، فثمة تعاون على الخير بين الحجارة والماء وهذا الماء ليس كثيراً متفجراً ، وإنما هو قليل محدود ومن ثم هو الذي يخرج في هيئة عين ماء مثلاً . ومن هذه الحجارة ما يقوم بأكبر مجهود وذلك حينما يتردى من علو إلى أسفل بسبب الخشية من الله تعالى والخوف منه جل وعلا . « واختلف المفسرون في تفسير هذا فذهب قوم إلى أن الخشية هنا حقيقة ... فقال قومٌ معناه من خشية الحجارة لله تعالى ، فهي مصدر مضاف للمفعول ، وأن الله تعالى جعل لهذه الأحجار التي تهبط من خشية الله تعالى تمييزاً قام لها مقام الفعل المودع فيمن يعقل . واستدل على ذلك بأن الله تعالى وصف بعض الحجارة بالخشية وبعضها بالإرادة ووصف جميعها بالنطق والتحميد والتقديس والتأويب

والتصدع . وكل هذه صفات لا تصدر إلا عن أهل التمييز والمعرفة . قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل .. الآية » وان من شيء الا يسبح بحمده . يا جبال أوني معه والطير . وفي الحديث الصحيح إنني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ قبل أن أبعث . وأنه بعد مبعثه ما مرّ بحجر ولا مدّر إلا سلم عليه . وفي الحجر الأسود أنه يشهد لمن يستلمه . وفي حديث الحَجَر الذي فر بثوب موسى عليه السلام ، وصار يعدو خلفه ويقول : ثوبي حجر . ثوبي حجر . وفي الحديث عن أحد : إنّ هذا جبل يحبنا ونحبه . وفي حديث حراء لما أهُتَز : اسكن حراء . وفي حديث تسييح صغار الحصى بكف رسول الله ﷺ . وقد دلت هذه الجملة وأحاديث أُخر على نطق الحيوانات والجمادات وانقياد الشجر وغير ذلك . فلولا أنه تعالى أودع فيها قوة مميزة وصفة ناطقة وحركة اختيارية لما صدر عنها شيء من ذلك ولا حسن وصفها به . وإلى هذا ذهب مجاهد وابن جريج وجماعة ... وذهب قوم إلى أن الخشية هنا مجاز من مجاز الاستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله تعالى : « يريد أن ينقض » (١) .

وتختم الآية الكريمة بتحذير بني اسرائيل بأن الله تعالى ليس بغافل عما يعملون . وإذا كان الخطاب متجهاً إلى بني اسرائيل أساساً ، فإنه وراء ذلك متجه إلى كل الناس .

والملاحظ أن كفر نعم الله تعالى هو الغالب على بني اسرائيل .

(١) البحر المحيط ١ / ٢٦٦ .

﴿٧٥﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

بينت الآيات الكريمات السابقات أن بني إسرائيل قد كفروا كل نعم الله تعالى إليهم . والآية الكريمة التي تحوّلنا إليها تبيّن في استفهامها الإنكاري داعياً قوياً يحث المؤمنين على أن يأسوا من إيمان اليهود لأجل دعوة المؤمنين لهم . لقد كان المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ ، وبخاصة الأنصار حريصين على إيمان اليهود ، فقد كان اليهود قبل الإسلام بفروعهم المختلفة حلفاء بعض الأوس والخزرج بفروعهم المختلفة ضد بعض . ولما كان لأخبار اليهود سابق تنكر لكلام الله تعالى ، أعنى التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام ، بل سابق تحريف لكلام الله تعالى بعد أن سمعوه سماع تدبرو عقلوه ، مع علمهم التام بمعنى تحريف كلام الله تعالى وعقابه الشديد ، ومما حرفوه صفات المصطفى ﷺ ، فإن الآية الكريمة تريح المؤمنين من الطمع في إيمان القوم . إنّ الآية الكريمة التي تقرر أن لسلف يهود المدينة المنورة المعاصرين سابقة في تحريف كلام الله تعالى بعد سماعه ووعي معانيه ، لتنكر على المؤمنين في أسلوب استفهامي أن يطمعوا في إيمان القوم بمعنى أن على المؤمنين أن يأسوا من إيمان هذه الفرقة من اليهود . إنهم إن كفروا فلهم سابقة في ذلك ^(١) .

والطمع تعلق النفس بإدراك مطلوب تعلقاً قوياً وهو أشد من الرجاء ^(٢) .

(١) تفسير القرطبي ص ٣٩٦ .

(٢) البحر المحيط ١/ ٢٦٩ .

﴿٧٦﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَ بِعَظْمُهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ
قَالُوا اتَّخَذْتُنَّهِمْ ءِيمَانًا فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرُ كَذِبًا
أَفَلَا تَعْقِلُونَ

الكلام هنا عن منافقي اليهود، الذين يتفق موقفهم من الإسلام مع موقف المنافقين
الذين جاء عنهم في أول السورة قوله تعالى: «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا
إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون» ان منافقي اليهود يقولون للمؤمنين ما
قال المنافقون لهم: «آمنا» فإذا خلا بعض هؤلاء اليهود إلى البعض الآخر قال
رؤساؤهم منكبين عليهم قولهم: اتَّخَذْتُنَّهِمْ ءِيمَانًا بما عرفكم الله تعالى وبين لكم في
التوراة من أمر النبي ﷺ وصفته ودينه وأخذ العهود على أنبياء بني إسرائيل بالآيمان به
ونصرته كي يحاجوكم به عند ربكم يوم القيامة ويشكوكم إلى الله تعالى بأنكم عرفتم الحق
ثم جحدتموه؟ أفلا تعقلون؟ هلا استخدمتم عقولكم كما ينبغي فلم تتورطوا في الحقد
حينما تعلنون لهم ما ينبغي أن تسروا وتكتموا من علم منحكم الله تعالى إياه.

إن إنكار هؤلاء على الآخرين إن يحدثوا المسلمين بما وصل أعماقهم من علم
قطعي، يفهم منه غباء القوم لأنه إنما يصح أن يصدر ممن يظن أن الله تعالى لا يعلم ما
يسرون، وقد صرحت بهذا المعنى الآية الكريمة التالية:

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ



في هذه الآية الكريمة توبيخ لليهود وتقريع . فما داموا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل ما يسرون ، ومن ذلك كفرهم بمحمد ﷺ ، وما يعلنون ، ومن ذلك تظاهرهم بالإسلام ، فَلَمْ يَتَوَرَّطُوا فِي هَذَا التَّنَاقُضِ الَّذِي لَا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى غِبَاءِ الْقَوْمِ وَغَفْلَتِهِمْ ؟

إن الله سبحانه وتعالى عالم بأنهم منافقون ، يظهرُونَ الْإِيمَانَ وَيُخْفُونَ الْكُفْرَ . وَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحَاسِبُهُمْ عَلَى نِفَاقِهِمْ وَمُحَاسِبُهُمْ عَلَى مَا فَتَحَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ عِلْمٍ قَطْعِيٍّ بِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ وَأَعْلَانِهِمُ الْإِيمَانَ بِهِ وَاسْرَارِهِمُ الْكُفْرَ بِهِ .

﴿٧٨﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ

« مناسبة ارتباط هذه الآية أنه لما بين أمر الفرقة الضالة التي حرفت كتاب الله وهم قد عقلوه وعلموا بسوء مرتكبهم ، ثم بين أمر الفرقة الثانية المنافقين ، وأمر الثالثة المجادلة ، أخذ بين أمر الفرقة الرابعة وهي العامة التي طريقها التقليد وقبول ما يقال لهم » (١) .

فمن هؤلاء اليهود أميون ، لا يقرأون ولا يكتبون ، وبالتالي هم لا يعلمون التوراة الا مجموعة من الأماني القلبية والنفسية ، وقد قال تعالى (٢) : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فمن أمانيهم أن يدخلوا الجنة وحدهم (٣) وألا تسهم النار ألا أياماً معدودة ، فقد متاهم بذلك أحبارهم ، وأن يعفو الله عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم وأن الأنبياء يشفعون لهم (٤) وبالإضافة إلى كون علمهم مجموعة من الأماني ، هو مجموعة من الظنون ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً « وإن هم الا يظنون » « إن » هنا هي النافية بمعنى « ما » . وهم مرفوع بالابتداء . وإلا يظنون في موضع الخبر ... وأتى بالخبر فعلاً مضارعاً ولم يأت باسم الفاعل لأنه يدل على حدوث الظن وتجده لهم شيئاً فشيئاً ، فليسوا ثابتين على ظن واحد ، بل يتجدد لهم ظنون دالة على اضطراب عقائدهم واختلاف أهوائهم (٥) .

(١) البحر المحیط ١ / ٢٧٥ .

(٢) سورة البقرة ١١١ ، ١١٢ .

(٣) يلاحظ أن حديث آيات سورة البقرة في هذا الموضع عن اليهود والنصارى معاً .

(٤) انظر البحر المحیط ١ / ١٧٥ .

(٥) البحر المحیط ١ / ٢٧٦ .

﴿٧١﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ

ابتدأت آيات هذا القسم بالنهي على اليهود الذين يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد عقلوه وهم يعلمون . وتعود هذه الآية الكريمة إلى الحديث عن هذا الفريق ذاته الذي تجاوز كل مراحل الافتراء إلى انتهاها حيث إنه كتب بيده ما افتراه . والآية الكريمة تنص في مستهلها على شدة العذاب التي تنتظر أولئك الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، محبرينه ومزوقينه ، حتى إذا استقام لهم ما أملت عليهم نفوسهم الأماراة بالسوء وشياطينهم من تحريف وتأليف ، زعموا أن ما كتبوه بأيديهم وأوحت إليهم به ذوات أنفسهم هو من عند الله تعالى ، فهو من التوراة التي أوحى الله تعالى إلى موسى . وبطبيعة الحال لا يتم لهم ذلك إلا بالتغيير في التوراة والتبديل كأن يغيروا مثلاً صفة محمد بن عبد الله ﷺ في التوراة ، كي لا يوافق تحريفهم صفة النبي ﷺ كما جاءت في التوراة . ولماذا هم يقومون بهذه الكتابة ؟ ولماذا هم يزعمون أن ما كتبوه هو من عند الله تعالى ؟ ليشتروا به ثمناً قليلاً . لينالوا الثمن القليل للتحريف ، من تغيير وتبديل وحذف وإضافة ، ارضاء للسادة الحريصين على السلطة الدنيوية أو ارضاء للعامة الذين يحرص الأحرار على امتلاك قلوبهم وهم في حكم من لا عقل له . وسواء كان المقابل ثمناً كبيراً أو قليلاً ، فإنه لا بركة فيه ولذلك هو قليل حقيقة لأن مصيره في كل الأحوال إلى زوال بينما إثمته باق ، على كل حال ، ونام بمرور الأيام والليالي ، لأن عليهم وزر أعمالهم ووزر الذين أضلوهم . فهؤلاء حقاهم الذين ضلوا وأضلوا وضلوا عن سواء السبيل . وقد استحق كل من العاملين السعيين اللذين قاما بهما شدة العذاب . فويل لهم مما كتبت أيديهم من زور وبهتان وويل لهم مال حرام نالوا باعثاً لهم على ما كتبوا وثنأً له .

موا

من

﴿٨٥﴾ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

سَبْرُ النَّزُولِ

عن ابن عباس وقتادة : إن اليهود قالت إن الله أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوماً عدد عبادتهم العجل فأكذبهم الله (١) .

فهؤلاء اليهود يزعمون أن نار جهنم لا تمسهم إلا أياماً معدودة . هي الأربعون يوماً الموافقة لعدد الأيام التي عبدوا فيها العجل حينما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه . وإن القرآن الكريم ليسألمهم منكرًا عليهم : هل يقولون هذا القول بناءً على عهد اتخذه عند الله تعالى بأن شهدوا ألا إله إلا الله وآمنوا وأطاعوا وقد قال تعالى (٢) « لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » وكذلك هم يستوجبون الخروج من النار ، أو هل عرفوا ذلك بوحيه الذي عهده إليهم ؟ (٣) إذن فلن يخلف الله عهده . أم أنكم أيها اليهود تقولون ما لا تعلمون ؟ ومعلوم أنهم يقولون على الله ما لا يعلمون والدليل على ذلك الآيتان الكريمتان التاليتان .

(١) تفسير القرطبي ص ٤٠٥ .

(٢) سورة مريم ٨٧ .

(٣) انظر البحر المحيط ٢٧٨/١ وتفسير القرطبي ص ٤٠٦ .

٨١ ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

بلى : حرف جواب يثبت به ما بعد النفي . فبما أن اليهود زعموا أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، ففي القول « بلى » اكذاب من الله تعالى لهم واثبات مس النار لهم بل الخلود في النار لمن كفر منهم بالله تعالى وأشرك معه جل وعلا غيره وأحاطت به خطيئته واستولت عليه كبريته ولم يتب إلى الله تعالى منها توبة نصوحا .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

٨٢

أشارت الآية الكريمة السابقة إلى أصحاب النار الخالدين فيها، الذين أشركوا مع الله تعالى غيره وأحاطت بهم كبائر الذنوب، فثمة اعتقاد سييء وعمل سييء. وعلى عادة القرآن الكريم في الجمع بين الوعد والوعيد وما إليهما، فقد تحدثت هذه الآية الكريمة التالية عن أصحاب الجنة الخالدين فيها. إنهم الذين جمعوا بين الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح. « والمراد بالذين آمنوا أمة محمد ﷺ ومؤمنو الأمم قبله . قاله ابن عباس وغيره . وهو ظاهر اللفظ » (١) .

(١) البحر المحيط ١ / ٢٧٩ .

﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ

هذه الآية الكريمة تشير إلى مظهر من مظاهر كفر بني اسرائيل لنعم الله تعالى ونقضهم للعهود والمواثيق، وفي مقدمة تلك المواثيق الموثق الذي أخذه الله تعالى منهم بأن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له وأن يحسنوا إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين وأن يقولوا للناس حسناً وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

وهذا الميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم في التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام. «قوله تعالى: لا تعبدون قال سيويه: لا تعبدون متعلق بقسم والمعنى وإذ استحلقتهم والله لا تعبدون»^(١) وبالوالدين إحساناً أي وأمرناهم بالوالدين إحساناً^(٢). وقد ابتداء الموثق بعبادة الله تعالى، تلاه الإحسان إلى الوالدين والمعروف أنهما هما الأولى بالإحسان بين عباد الله تعالى. وما أكثر المواطن في القرآن الكريم التي أمرت بعبادة الله تعالى أولاً ثم ثنت بالأمر ببر الوالدين. وذلك دليل على منزلة بر الوالدين في الإسلام. وقد جاء بعد الوالدين أولى الناس بالإحسان وهم ذوو القربى، لأن في ذلك صلة للرحم التي أمر الله تعالى أن توصل حتى إذا شمل الإحسان كل الاقارب ثم التحول إلى الذين يلونهم فابتداء السياق بأكثرهم حاجة وأقلهم حيلة وهم اليتامى، تلا ذلك الذين يلونهم وهم المساكين الذين أسكنهم الفقر فهم محتاجون ولكنهم أكثر من اليتامى قدرة على الحركة والسعي وراء لقمة العيش.

(١) تفسير القرطبي ص ٤٠٧.

(٢) تفسير القرطبي ص ٤٠٨.

وبعد أن شمل الإحسان عملاً كل الفئات المستحقة أردف بالإحسان قولاً :
« وقلوا للناس حسناً » وبسبب سهولة القول بالقياس إلى الفعل شمل كل الناس .
« فأما قراءة الجمهور حسناً فظاهره أنه مصدر وأنه كان في الأصل قولاً حسناً . إما على
حذف مضاف أي ذا حسن . وإما على الوصف بالمصدر لافراط حسنه . وقيل يكون
أيضاً صفة لا أن أصله مصدر بل يكون كالحلو والمر ، فيكون الحُسْن والحَسَن لغتين
كالْحُزْن والحَزْن والعُرْب والعَرَب وقيل انتصب على المصدر من المعنى لأن المعنى
وليحسن قولكم حسناً^(١) .

وقد أمروا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما على التوالي عماد العبادات البدنية
والمالية .

لقد كان موقف بني اسرائيل من ايتاء الموثق نقض هذا الموثق والتكرار لكل تلك
التعاليم باستثناء القليل منهم . أما الأكثرية فإنها تولت بأجسادها وأعرضت بقلوبها .

(١) البحر المحيط ٢٨٥/١ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

أشارت الآية الكريمة السابقة إلى الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني اسرائيل .
وبتبيين بنود الميثاق يتبين أنها كلها ، بما في ذلك ما له علاقة منها بالإنسان ، يراعي فيها حق
الله تعالى من زاوية العبادة ، إتجاهاً إلى الله تعالى مباشرة كالتوحيد والصلاة ، أو مروراً
بالإنسان كالإحسان إلى الفئات التي نصت عليها الآية الكريمة ، قولاً وعملاً ، إضافة إلى
الزكاة التي تمر بالإنسان . فإذا تحولنا إلى هذه الآية الكريمة تبين أنها هي الأخرى تشير إلى
الميثاق الذي أخذ على بني اسرائيل في ميدان المعاملة . فقد أخذ الله تعالى على بني اسرائيل
الموثق في التوراة بأنهم لا يسفكون دماءهم ، بمعنى أنهم وهم أصحاب العقيدة الواحدة لا
يقتل بعضهم البعض الآخر ، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم . وقد عبر عن دماء
الطرفين وعن أنفس الطرفين بالقول « لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من
دياركم » باعتبار الأطراف المتنازعة فريقاً واحداً بسبب العقيدة وروابط الدين . فكأن
سفك دم الآخرين سفك لدمائهم وكأن اخراج الآخرين من ديارهم اخراج لأنفسهم .

لقد قبل بنو اسرائيل ذلك الميثاق واعترفوا على أنفسهم بلزومه وشهدوا على
أنفسهم بقبوله .

٨٥ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ
تُظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذَرُوهُمْ وَهُمْ
مَحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُونُ مَنْ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ
فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
يُردُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

موقف بني اسرائيل من العهد الذي عاهدوا الله تعالى عليه بأنهم لا يسفكون
دماءهم ولا يخرجون أنفسهم من ديارهم، هو ذات الموقف من كل المواثيق السابقة.
نقصها بالكليّة. وهذه الآية الكريمة تبين نقضهم لهذا النوع من المواثيق. إن هؤلاء اليهود
يقتل بعضهم بعضاً ويخرج بعضهم بعضاً ويظاهر بعضهم بعضاً، ضد بعضهم الآخر،
بالإثم والعدوان. والعجيب في أمر هؤلاء أنهم بعد أن يقتلوا إخوانهم ويتظاهروا عليهم،
ويخرجوهم من ديارهم، هم يفادون أسارى هؤلاء اليهود الذين يقاتلونهم. وحينما
يسألون لم تقاتلونهم وتفدونهم يكون جوابهم العجيب بأنهم أمروا بالفداء أي بدفع الفداء
للذين أسروهم كي يخلصوهم من أسرهم. ويغفل هؤلاء المجيبون الأمور الأخرى التي
نہوا عن ارتكابها من قتل إخوانهم وإخراجهم من ديارهم والتظاهر عليهم. إن الأمور
الثلاثة المؤدية إلى الأسر يفعلونها وهم الذين نهوا عن ارتكابها ثم هم بعد ذلك يفادون
هؤلاء الأسرى زاعمين أن الله أمرهم بأن يفادوا أسرى اليهود. إن الأمور الأربعة كلها
مجمعة قد أمروا بالآلا يرتكبوا أيّاً منها، ومع ذلك هم يخالفون الأوامر بشأن ثلاثة منها.
ونضرب المثل على ذلك ببطون يهود المدينة المنورة. لقد كان بنو قينقاع من اليهود حلفاء
الخزرج. وكان بنو قريظة حلفاء الأوس. فإذا اقتتل الأوس والخزرج قاتل معهم
حلفاؤهم من اليهود الذين يقتلون إخوانهم ويخرجونهم من ديارهم ويظاهرون خصومهم
عليهم. حتى إذا وقع من اليهود أسرى لدى الأوس أو الخزرج وطلبوا الفداء فادى اليهود
أسرى خصومهم من بني جنسهم!

إن القرآن الكريم لينعى على اليهود كل تصرفاتهم فهم غير مسموح لهم بقتل إخوانهم ولا باخراجهم ولا بالتظاهر عليهم ومع ذلك هم يفعلون كل هذه الأمور . ثم هم مأمورون بتطبيق كل تعاليم التوراة لا بعضها وهم في التزامهم بافتداء الأسرى يطبقون بعض تعاليم التوراة . لذا فالقرآن الكريم يوبخهم وينكر عليهم التناقض الذي يتورطون فيه . أن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض الآخر .

إن العقاب الذي ينتظرهم في الدنيا والآخرة أليم شديد . انه في الدنيا خزي وهوان . وانه في الآخرة لعذاب شديد . وإن الله سبحانه وتعالى ليس غافلاً عما يعمل هؤلاء الظالمون .

٨٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ
الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ

والآية الكريمة هنا تبين السبب الحقيقي وراء نقض بني اسرائيل للمواثيق . إنهم اعتبروا الحياة الدنيا غاية المنى ونهاية المطاف فدفعوا الآخرة ثمناً لها . وبما أن الآية السابقة قد أشارت إلى أشد العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة فإن الآية الكريمة هذه تبين أن ذلك العذاب الشديد لن يخفف عنهم، ثم هم لن ينصروا فلن يستطيع أحد أن يدفع عنهم ذلك العذاب الشديد الدائم .

﴿٨٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا بَيْنَ كَذِبَتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ

هذه الآية الكريمة تبين مظهراً آخر من مظاهر كفر بني اسرائيل لنعم الله تعالى واستكبارهم وطغيانهم الذي ليس له حدود . إنهم فيما يتصل برسل الله تعالى الذين أرسلهم بعد موسى عليه السلام لهم موقفان . تكذيب رسل الله تعالى أو قتلهم . فموقفهم من الرسل واحد هو الكفر بهم . وفيما يتصل بموقفهم من التوراة التي أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام هم يؤمنون ببعضها ويكفرون ببعضها مع زعمهم أنهم يؤمنون بما أنزل الله تعالى إليهم .

إن الآية الكريمة تنص على إتياء الله تعالى موسى عليه السلام التوراة وإتياءه بالرسل . يحكي ان موسى عليه السلام لم يمّت حتى نبيء يوشع^(١) كما تنص على إتيائه جل وعلا عيسى ابن مريم عليه السلام المعجزات البينات والحجج الواضحات على نبوته ، وتأيد الله تعالى له بجبريل عليه السلام روح القدس ، ومعنى روح القدس الروح المقدسة^(٢) والقدس الطهارة^(٣) و : « اختصاص عيسى بجبريل من أكد وجوه الاختصاص إذ لم يكن لأحد من الأنبياء مثل ذلك ، لأنه هو الذي بشر مريم بولادته وتولد عيسى بنفخه ، ورباه في جميع الأحوال وكان يسير معه حيث سار . وكان معه حيث صعد إلى السماء^(٤) .

(١) البحر المحيط ١ / ٢٩٨ .

(٢) الكشف ١ / ٢٢٦ .

(٣) تفسير القرطبي ص ٤١٨ والبحر المحيط ١ / ٢٩٧ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٣٠٠ .

وإن الآية الكريمة وراء ذلك تستفهم موجة لبني اسرائيل ومفرعة ومنكرة عليهم تكبرهم وتجبرهم، وانقيادهم لما تسول لهم أنفسهم به من احتقار لرسول الله تعالى واستبعاد للرسالة. فقد بين النبي ﷺ معنى الكبر بأنه سفه الحق وغمط الناس^(١) ويكون رد فعل بني اسرائيل لأي دعوة إلى الله تعالى من قبل أي من رسله التكذيب، كما كذبوا عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام. فإذا استطاعوا أن يضيفوا إلى التكذيب قتل رسل الله تعالى فإنهم لن يترددوا عن ذلك وعن المحاولات المتكررة لنيل ذلك. لقد قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام^(٢) وقد حاولوا قتل رسول الله ﷺ وذلك سحروه وسموه. قال ﷺ عند موته : ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري^(٣).

(١) البحر المحيط ١ / ٣٠٠ .

(٢) تفسير القرطبي ص ٤١٨ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٠١ .

﴿٨٨﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ

هذه الآية الكريمة تنص على الدافع الحقيقي لبني اسرائيل على تكذيبهم رسل الله تعالى وقتلهم اياهم. ان هذا السبب هو كفرهم. ومعروف أن لفظة الكفر تعني التغطية، والكفر أنواع، وان هؤلاء اليهود يمثلون أحد أنواعه السيئة التي استحقوا معها أن يطردهم الله تعالى بعيداً من رحمته وتوفيقه. إنهم كفروا أكبر نعم الله تعالى وهي نعمة ارسال الرسل وصدوا عن سبيله جل وعلا.

إن هؤلاء اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وقد كفروا به ﷺ وبالقرآن الكريم، الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي هو تنزيل من حكيم حميد، يزعمون أن السبب في عدم فهمهم لما يجري على لسانه ﷺ آيات تتلى أو احاديث تروى، انما هو عائد إلى طبيعة هذه القلوب التي خلقت وعليه أغشية وأغشية تحول بينها وبين ما يجري على لسانه ﷺ أن يتخللها. وان القرآن ليكذبهم ويبين أن قلوبهم قد خلقت كقلوب غيرهم على الفطرة والاستعداد لقبول الحق ولكنهم التوا بهذه القلوب عن مسارها الصحيح وانحرفوا عن الصراط المستقيم، وحينما انصرفوا صرف الله قلوبهم وحينما كفروا بنعم الله تعالى استحقوا أن يطردوا من رحمة الله تعالى. وبسبب هذا الإبعاد من رحمة الله تعالى هم قليلاً ما يؤمنون « فقليلاً نعت لمصدر محذوف تقديره فإيماناً قليلاً يؤمنون »^(١) وقد جاء في سورة النساء^(٢) : « فما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلاً » .

(١) انظر تفسير القرطبي ص ٤١٩ والكشاف ٢٢٦/١ والبحر المحيط ٢٠١/١ .

(٢) الآية ١٥٥ .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ
مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ

هذه الآية الكريمة تبين اصرار بني اسرائيل على الكفر. وسبب نزولها أن بني اسرائيل في حربهم مع عرب الجزيرة العربية كغطفان والأوس والخزرج كانوا يستنصرون على أولئك المشركين ويقولون^(١): « اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نحمد نعتة وصفته في التوراة. ويقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم! لقد شاءت العناية الإلهية أن يبعث محمد بن عبد الله ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وليس من ذرية إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام. وقد كان اليهود يتمنون أن يكون من ذرية إسحاق لأن كل أنبيائهم من تلك السلالة ، وحينما تبينوا أنه ﷺ من ذرية إسماعيل ، وأن رب العزة أنزل عليه أشرف الكتب السماوية امتلأت قلوبهم حسداً وبغضاً ونفوسهم غيظاً وحقداً فما كان منهم الا أن كفروا به ﷺ وبما أنزل الله تعالى عليه ، على الرغم من كون وصفه ﷺ موجوداً في التوراة ، وكون القرآن الكريم مصدقاً للتوراة ، وللانجيل كذلك . أما وقد كفروا بصرح العبارة وأصروا على كفرهم رغم مجيء أوضح الأدلة وأكبرها على صدق القرآن الكريم والرسول العظيم ، فقد استحقوا أن يلعنهم الله تعالى لعناً كبيراً وأن يبعدهم جل وعلا من رحمته بعداً شديداً .

(١) انظر الكشف ٢٢٧/١ وتفسير القرطبي ص ٤١٩ والبحر المحيط ١/٣٠٣ .

وجواب لَمَّا الأولى دل عليه جواب لَمَّا الثانية : فلعنة الله على الكافرين^(١) وتقدير
جواب لَمَّا الأولى : ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل
يستفتحون على الذين كفروا كذبوا به واستهانوا بحبيثه^(٢) وكفروا^(٣) فلما جاءهم ما
عرفوا من الحق كفروا به بغياً وحسداً وحرصاً على الرئاسة^(٤) فلعنة الله على الكافرين
أي عليهم، وَضَعًا للظاهر موضع المضمَر للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم^(٥).

(١) الجلالين .

(٢) انظر الكشف ١ / ٢٢٦ .

(٣) انظر البحر المحيط ١ / ٣٠٣ .

(٤) الكشف ١ / ٢٢٧ .

(٥) الكشف ١ / ٢٢٧ والبحر المحيط ١ / ٣٠٤ .

بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا
أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا
بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ

هذه الآية الكريمة تبين باعثاً جديداً لبني اسرائيل على كفرهم بما أنزل الله تعالى على
من يشاء من عباده ، وهذا الباعث هو البغي بمعنى الظلم والحسد . وقد استحق كل من
الكفر والبغي أن يكون من نصيب أصحابهما جملة بئس التي حكم بها على القوم والتي
صدرت الآية الكريمة .

وبئس فعل جعل للذم . وما نكرة بمعنى شيئاً تميز لفاعل بئس . والمخصوص بالذم
أن يكفروا أي كفرهم . واشتروا هنا بمعنى باعوا . فالمعنى بئس ما باعوا به أنفسهم ، أي
حظها من الثواب والحق والايان ، فقد كان البديل العقاب والباطل والكفر . والذي أنزله
الله تعالى هو القرآن الكريم ، وهذه شهادة من رب العالمين بأن القرآن الكريم كلام رب
العالمين نزل به الروح الأمين . إن الذنب الكبير الأول الذي ارتكبه بنو اسرائيل هو
كفرهم بالقرآن الكريم . وإن الذنب الكبير الثاني الذي ارتكبه هو أن كفرهم بالقرآن
الكريم إنما كان لأجل البغي منهم والبغض لسيد الأنام خاتم الأنبياء والمرسلين الذي حباه
الله بهذا الفضل العظيم فأنزل عليه هذا الكتاب الكريم . إن بني اسرائيل يحسدون محمد
ابن عبدالله ﷺ أن آتاه الله عز وجل من فضله فاصطفاه بالكتاب العزيز وبختم النبوة
وبالرسالة . لقد كان بنو اسرائيل يريدون استمرار ارسال الرسل في نسل إسحاق بن
إبراهيم عليهما السلام ، ولكن شاءت العناية الإلهية أن يكون كل ذلك الفضل من
نصيب محمد بن عبدالله ﷺ ، النبي الوحيد من ولد اسماعيل عليه السلام .

وبسبب هذين الذنبتين العظيمين ، ذنب الكفر بالقرآن الكريم ، والبغي على الرسول
العظيم باعوا بغضب من الله تعالى على غضب والعياذ بالله . والآية الكريمة تقرر في نهايتها
أن للكافرين عذاباً مهيناً ، وفي مقدمة هؤلاء الكافرين كافرو أهل الكتاب الذين كفروا
بما أنزل الله تعالى بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ
عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

(١)

تبين من قبل أن بني اسرائيل يكفرون بالقرآن الكريم بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده وحسداً من عند أنفسهم فاستحقوا غضباً من الله تعالى على غضب . وفي هذه الآية الكريمة نحن بصدد كفر من نوع آخر . فحينما يقال لبني اسرائيل آمنوا بالقرآن الكريم الذي أنزل الله تعالى على محمد بن عبد الله ﷺ يقولون نؤمن بما أنزل علينا أي التوراة ويكفرون بما أنزل الله تعالى بعد التوراة وبخاصة القرآن الكريم الذي يعلمون أنه الحق من ربهم والمصدق للتوراة . وهنا تبين الآية الكريمة نوعاً غريباً من أنواع كفر القوم ذلك بأنهم ، وهم الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالتوراة يقتلون أنبياء الله تعالى من قبل ، والتوراة لا تجيز لهم بحال من الأحوال قتل الأنبياء المصطفين الأخيار . فكيف يمكن التوفيق بين زعمهم بأنهم يؤمنون بالتوراة وبين اجترائهم على مخالفة تعاليم التوراة التي لا تسوغ لهم قتل نفس حرم الله قتلها ألا بالحق فكيف بأنبياء الله تعالى ؟ الحقيقة أن بني اسرائيل يكفرون بالتوراة كما يكفرون بما وراء التوراة . ويلاحظ أن اتجاه الأحداث يسير إلى الوراء ، إلى الماضي ، كما يلاحظ أننا بصدد مجموعة من مظاهر كفر بني اسرائيل لنعم الله تعالى « فَلِمَ : الفاء جواب شرط مقدر ، التقدير : إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ، لأن الإيمان بالتوراة واستحلال قتل الأنبياء لا يجتمعان » (١) « والأظهر أن إن شرطية والجواب محذوف . التقدير فلم فعلتم ذلك . ويكون الشرط وجوابه قد كرر مرتين على سبيل التوكيد . لكن حذف الشرط من الأول وأبقى جوابه وهو : فلم تقتلون . وحذف الجواب من الثاني وأبقى شرطه » (٢) وليس بخاف أن القول : إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ يجرى مجرى التهكم بهم والاستهزاء .

(١) البحر المحيط ١ / ٣٠٧ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٣٠٧ .

﴿٩٢﴾
وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ

تعمق هذه الآية الكريمة الاتجاه مع الأحداث إلى الماضي ، كما تعمق كفر بني اسرائيل لنعم الله تعالى . وها هي ذى الآية الكريمة في طريقة عنيفة تخاطب بني اسرائيل مستعملة لام القسم وهي الآيات التسع التي نصت عليها سورة الأعراف مثلاً وهي العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وإلى العصا واليد أشار قوله تعالى (١) : « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين » وإلى السنين ونقص الثمرات أشار قوله تعالى (٢) : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ » وقد نصت السورة الكريمة على علم آل فرعون بآيتي السنين ونقص الثمرات كما أشارت إلى الآيات الخمس تمام الآيات التسع . قال تعالى (٣) : « فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطْفِرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ . أَلَا إِنَّمَا طَائَرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » لقد كان بنو اسرائيل على علم بهذه الآيات التي آتاها الله تعالى موسى عليه السلام ، وقد فقهوها جيداً (٤) ، وكان لديهم الفسحة من الوقت كي يتدبروها هي وغيرها من الآيات البينات التي آتاها الله تعالى موسى عليه السلام فالآية الكريمة تستعمل « ثم » ومع ذلك فقد اتخذوا العجل من بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه . وأنتم ظالمون أي قوم عادتكم الظلم ومن ذلك وضع العبادة في غير موضعها .

(١) سورة الاعراف ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) سورة الأعراف ١٣٠ .

(٣) سورة الاعراف ١٣١ - ١٣٣ .

(٤) للعلماء آراء أخر في هذه الآيات فهم يعتبرون فلق البحر آية ويضمون إلى السنين نقص الثمرات ، انظر مثلاً

البحر المحيط ١ / ٣٠٨ وتفسير القرطبي ص ٤٢٣ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ

(٩٣)

الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا^ط قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا
فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ^ج قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه وآتاه جل وعلا التوراة ، وفي تلك الأثناء عبدوا العجل ورجع موسى عليه السلام إلى قومه غضبان أسفا، وفتح الله تعالى باب التوبة للذين اتخذوا العجل وقد جاء في سورة الاعراف (١) : «إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين . والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم» وأخذ الله تعالى ميثاق بني اسرائيل على العمل بما في التوراة بعد أن رفع الطور بإرادة الله تعالى فغدا فوقهم كأنه ظلة وقيل لهم خذوا ما آتيناكم في التوراة بحمد واجتهاد واسمعوا سماع تدبر وترجموا الفهم إلى عمل . فماذا كان جواب بني اسرائيل على هذا الأمر؟ كان جوابهم عجباً . « قالوا سمعنا وعصينا » والمعنى سمعنا قولك وعصينا أمرك (٢) عن ابن عباس : كانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا وأطعنا . وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا (٣) والسبب في العصيان هو أن حب عبادة العجل قد أشربته قلوبهم ، بمعنى أنه تغلغل في أعماق تلك القلوب تغلغل الشراب القادر على التغلغل في كل أجزاء الجسم . فالقوم إذن مشركون . وهل عبادة العجل أمر تسمح به التوراة التي يزعم القوم أنهم مؤمنون بها أم أن ذلك أمر مرفوض جملة وتفصيلاً لاعتباره الذنب الذي لا يغفره جل وعلا . إن هذا الأمر مرفوض جملة وتفصيلاً تماماً كما يرفض قتلهم الأنبياء لأن هذا هو الآخر أمر لا تسمح به التوراة . وما دام الأمر كذلك ، وما دام القوم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، وما دام القوم يشركون مع الله تعالى غيره ، ومع ذلك هم

(١) الآية ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) الكشف ٢٢٧/١ والجلالين .

(٣) البحر المحيط ٣٠٨/١ .

يزعمون أنهم مؤمنون بالتوراة فإن هذا الحكم الصادر في حقهم من العزيز الحكيم هو الذي يستحقونه مع ما يرتبط بذلك الحكم من تهكم بهم وسخرية . « قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » . والمعنى قل يا محمد لهم بئس شيئاً يأمركم به إيمانكم بالتوراة عبادة العجل . والمراد آبائهم . أي فكذلك أنتم لستم بمؤمنين بالتوراة وقد كذبتم محمداً والإيمان بها لا يأمر بتكذيبه^(١) . وأضاف الإيمان إليهم لكونه إيماناً غير صحيح ولذلك لم يقل الإيمان^(٢) إن كنتم مؤمنين : تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم له^(٣) .

(١) الجلالين .

(٢) البحر المحيط ١/ ٣٠٩ .

(٣) الكشاف ١/ ٢٢٧ .

﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ
النَّاسِ فَمَتَمَنُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

سبب نزول هاتين الآيتين قولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا . ونحن أبناء الله
ولن تمسنا النار .. الآيات (١) والمعنى قل يا محمد لبني إسرائيل إن كانت لكم الجنة حينما
تلاقون وجه الله تعالى خاصة بكم من دون الناس جميعاً فتمنوا الموت إن كنتم صادقين في
زعمكم هذا وكنتم مطمئنين إلى سلامة مصيركم بناءً على أعمالكم في هذه الحياة الدنيا.

وبما أن أعمال القوم غاية في السوء ، فهم قد كفروا بالقرآن الكريم وبالرسول
العظيم وحرفوا صفة المصطفى ﷺ في التوراة ، وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض
فإنهم بنص القرآن الكريم ، وهذا أحد مظاهر أعجازه ، لن يتمنوا الموت أبداً بسبب ما
قدمت أيديهم من أعمال سيئة يستحقون عليها العقاب ، في تقديرهم هم قبل سواهم .
روى عن النبي ﷺ : لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على
وجه الأرض يهودي . وذلك أن الله أمر نبيه أن يدعوهم إلى تمنى الموت وأن يعلمهم أنه
من تمناه منهم مات ففعل النبي ﷺ ذلك فعلم اليهود صدقه فأحجموا عن تمنيه فرقاً من
الله (٢) وروى عنه ﷺ أنه قال : لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقامهم من
النار (٣).

إن احجام اليهود عن تمنى الموت دليل على كذبهم في زعمهم بكون الجنة خالصة
لهم وقولهم لن يدخل الجنة الا من كان هودا .

وتختتم الآية الثانية بالقول «والله عليهم بالظالمين» وفي مقدمة هؤلاء الظالمين اليهود .
وفي هذا تهديد للظالمين .

(١) البحر المحیط ٣١٠/١ وتفسير القرطبي ص ٤٢٤ .

(٢) البحر المحیط ٣١١/١ .

(٣) تفسير القرطبي ص ٤٢٥ .

﴿٩٦﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍهُ مِنَ الْعَذَابِ
أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

نصت الآية الكريمة السابقة على كون بني اسرائيل لا يتمنون الموت مطلقاً. وقد نصت هذه الآية الكريمة على ما يقابل الموت الفوري وهو طول الحياة. والخطاب في «لتجدنهم» متجه إلى المصطفى ﷺ. والمراد أنك يا محمد ستجد اليهود أحرص الناس على حياة، أي حياة، سواء كانت عزيزة أو مهينة، المهم أن يكونوا أحياء في أي حال من الأحوال. وأحرص من الذين أشركوا. على الرغم من اعتبار المشركين الحياة الدنيا غاية المني لأنهم لا يؤمنون بالبعث والنشور والحساب. وبتبيين السبب في تفوق اليهود على المشركين في الحرص على الحياة يزول العجب رغم كونهم أهل كتاب ويؤمنون بالبعث والنشور والحساب. ان السبب يمكن في معرفة اليهود سوء المصير الذي ينتظرهم كفاء سوء أعمالهم.

وبالإضافة إلى حرص اليهود على أي حياة، حرص الواحد منهم أن يعمر ألف سنة لو كان ذلك ممكناً. وإنما كان ذلك التمني بسبب الرغبة في الفرار من عذاب النار رغم زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة وان الجنة مقصورة عليهم وأنهم أبناء الله وأحباؤه. والآية تقرر بصريح العبارة أن عمر الواحد منهم مهما طال، فما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، والمعنى فما أحدهما بمبعده ومنحيه عن العذاب تعميره. وتختتم الآية الكريمة بتقرير الحقيقة من كون رب العزة بصيراً بما يعملون.

﴿٩٧﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ

حينما يسأل بنو اسرائيل عن الباعث لهم على الكفر بالقرآن الكريم والرسول العظيم يقولون لأن جبريل عليه السلام - وهو عدو لهم حسب زعمهم - هو الذي يأتي محمد ابن عبد الله ﷺ بالرسالة . فسبب نزول الآية الكريمة أن اليهود قالوا للنبي ﷺ إنه ليس نبي من الأنبياء الا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال : جبريل . قالوا : ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال . ذاك عدونا . لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعتك فأنزل الله الآية إلى قوله : للكافرين . أخرجه الترمذي (١) .

والخطاب في « قل » للمصطفى ﷺ الذي يأمره ربه عز وجل أن يقول لليهود بأن من كان منهم عدوًّا لجبريل عليه السلام ، فإنه عليه السلام نزل القرآن الكريم على قلبك أيها الرسول الكريم بعلم الله تعالى وإرادته ، مصدقًا للكتب السماوية بين يديه ، وبه تحصل الهداية للمؤمنين وتتم البشرية للعاملين بتعاليمه وقد قال تعالى (٢) : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » إن الملك الذي ينزل من السماء بالكتاب السماوي الذي تلك صفاته لا وجه لعداوته مطلقاً . ويلاحظ أن الصفات الثلاث « مصدقاً لما بين يديه وهدى وبُشراً للمؤمنين » رتبت ترتيباً وجودياً .

(١) تفسير القرطبي ص ٤٢٧ .

(٢) سورة الاسراء ٩ .

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ
وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ

٩٨

تبين في الآية الكريمة السابقة أن عداوة اليهود لجبريل عليه السلام لا وجه لها، وكان الأولى بهم ان يحلوا الحب محل العداوة . وهذه الآية الكريمة تبين أن الكافرين وحدهم هم الذين تصحّ منهم العداوة لجبريل عليه السلام . وهؤلاء بالاضافة إلى عداوتهم لجبريل عليه السلام هم أعداء الله تعالى ولرسله . ومن كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين . فاليهود الأعداء لجبريل عليه السلام أعداء الله تعالى حقيقة وبالتالي يستحقون العذاب بسبب معصيتهم . وقد نص على جبريل وميكال عليهما السلام وهما من الملائكة لفضلهما، ولأن الآيتين الكريمتين نزلتا بسببهما .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ

٩٩

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ابن سوريا لرسول الله ﷺ ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فتبعك لها فنزلت (١) والآية الكريمة يبين فيها رب العزة أنه أنزل على المصطفى ﷺ آيات بينات . وما يكفر بهذه الآيات الواضحات والمعجزات البينات الا الفاسقون الخارجون عن الصراط المستقيم . فاليهود إنما كفروا بالقرآن الكريم لأنهم فاسقون . ولا يكفر بالقرآن الكريم الا فاسق .

(١) الكشف ١ / ٢٣٠ .

﴿١﴾ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

أوكلما : الواو للعطف على محذوف معناه أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا^(١) عهداً على الإيمان بالنبي ﷺ إنْ خرج وأن يكونوا معه على المشركين من العرب طرح ذلك العهد فريق منهم^(٢) بل أكثرهم لا يؤمنون بالتوراة وليسوا من الدين في شيء فلا يعدون نقض المواثيق ذنباً ولا يبالون به^(٣) .

(١) الكشف ١ / ٢٣٠ :

(٢) انظر تفسير القرطبي ص ٤٣١ والجلالين .

(٣) الكشف ١ / ٢٣٠ .

﴿١٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

لقد كفر بنو اسرائيل بآيات الله البينات التي أنزلها الله تعالى على محمد بن عبد الله ﷺ لأنهم فاسقون وناقضون للعهود والمواثيق فقد أخذ عليهم العهد في التوراة بأن يؤمنوا بالنبي ﷺ إذا بعث وأن يكونوا معه ضد المشركين ، ولكن هؤلاء اليهود لما جاءهم هذا الرسول الكريم المصدق لما معهم من التوراة ، كفروا به وبآيات الله تعالى البينات التي أنزلها إليه . وفي هذا الكفر كفر بالتوراة التي تأمرهم باتباع الرسول النبي الأمي ، ونبد من هذا الفريق لكتاب الله تعالى الذي أنزل على موسى عليه السلام وراء ظهورهم وكأنهم لا يعلمون . وفي ذلك تشبيه لأعمالهم بعمل الجاهل ، وتلميح بأنهم يعملون ذلك وهم على علم تام بما يقترفون مخالفين لتعاليم التوراة .

وحينما لم يتبع بنو اسرائيل تعاليم التوراة بشأن المصطفى ﷺ وبشأن العهود والمواثيق التي أخذت عليهم بشأن كل الأمور التي ينبغي في حقها الاهتداء بنور السماء ، ما الذي اتبعوا ؟ الجواب في الآية الكريمة التالية .

﴿١٦﴾ وَاتَّبِعُوا مَا نَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ
وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا
إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ ۖ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ ۖ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا
يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ
وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

بنص الآية الكريمة اتبع بنو اسرائيل بعد أن نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، كتب السحر والشعوذة التي كانت الشياطين تقرأها على عهد ملك سليمان بن داود عليهما السلام وفي زمانه، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمنون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها إلى الكهنة، وقد دونوها في كتب يقرءونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا ان الجن تعلم الغيب. كانوا يقولون : هذا علم سليمان وما تم لسليمان ملكه الا بهذا العلم وبه يسخر الانس والجن والريح التي تجري بأمره^(١) وما كفر سليمان. هذه شهادة من الله تعالى بأن سليمان عليه السلام ما اعتقد السحر ولا عمل به وفي ذلك تكذيب للشياطين الذين بهتوا سليمان عليه السلام بذلك. وقد أطلق على السحر الكفر، لأن العمل بالسحر وتدوينه والانصراف إليه كفر بنعم الله تعالى وانصراف عن هديه وجحد لنوره. ولم يكن ذلك وقتاً من الأوقات صفة لسليمان عليه السلام، ولكن الشياطين هم الذين كفروا، وهم الذين يعلمون الناس السحر، وأصله التمويه بالحيل والتخايل^(٢) كما يعلمونهم ما أنزل على الملكين ببابل في العراق، هاروت وماروت. وقد أنزل الله تعالى السحر على الملكين فتنه وامتحاناً، لهذا فإن هذين الملكين لا يعلمان أي شخص السحر حتى يقولوا بصريح اللفظ : إنما نحن فتنه من الله تعالى للناس فلا تكفر نعم الله تعالى وآلاءه بالاعراض عن ذكر الله تعالى وتعاليم

(١) الكشف ٢٣٠/١ وانظر تفسير القرطبي ص ٤٣٢، ٤٣٣ وتفسير الجلالين .

(٢) تفسير القرطبي ص ٤٣٤ .

رسله إلى السحر الذي يرتبط به في المقام الأول الشرور والآثام . ومع ذلك فإن المعرضين عن ذكر الله تعالى وتعاليم رسله الراغبين في الشرور والآثام ، يصرون على أن يتعلموا من الملكين ببابل من السحر ما يفرقون به بين الزوج وزجه ، ويقاس على الزوجين اللذين جعل الله بينهما مودة ورحمة ، سواهما . وتقرر الآية الكريمة أن هذا التفريق وسائر الأذى الذي ينجم عن السحر إنما يتم بعلم الله تعالى وليس بأمره جل وعلا لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء ، وإن العمل بالسحر في مجال الأيذاء فحشاء ، كما تقرر الآية الكريمة أن الذين يتعلمون من الشياطين السحر ومن الملكين ببابل هاروت وماروت ، إنما يتعلمون ما يضرهم في الآخرة ولا ينفعهم . وهؤلاء الذين يتعلمون السحر يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم فهذا صرح الملكان ببابل هاروت وماروت ، وهذا هو الذي يربط بالعلم الذي يتلقى عن الشياطين ، ومع ذلك يتعلم القوم السحر مع علمهم بأن من اشتراه وآثر عاجل النفع مقابل الشرور والآثام التي يوصلها إلى بعض عباد الله تعالى ارضاءً لأهواء النفوس الأمارة بالسوء ، ليس له نصيب من الخير في الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، حتى وإن حقق من ايثاره نفعاً كبيراً في هذه الحياة العاجلة لأن مصير كل ذلك إلى زوال . والآية الكريمة تقرر في ختامها أن ما باع القوم أنفسهم به وهو ايثار العاجلة على الآجلة أمر سيئ حقاً . وليت اللوم علموا هذه الأمور على حقيقتها ، وليت القوم عملوا بما علموا . « جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه (١) » .

(١) الكشف ١ / ٢٣١ .

﴿٢٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقَوْا لِمُتُوبَةٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ

ترشد الآية الكريمة بني اسرائيل إلى الخير بأن يؤمنوا بالقرآن الكريم وبالرسول العظيم وأن يعملوا جاهدين وفق تعاليم القرآن والرسول حتى يصلوا إلى مرتبة التقوى التي نصت عليها السورة الكريمة في مطلعها : « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ان هذا الطريق هو طريق الخير وليت بني اسرائيل يعلمون هذا الطريق على حقيقته كيلا يؤثروا عليه سواه من اتباع لما تتلو الشياطين من سحر وكتب ، لأن في سلوك هذا الطريق عقوبة ، بينما في سلوك الطريق الآخر مثوبة من عند الله . ولا شك أن الثواب خير والعقاب شر . وهل يؤثر عاقل الشر على الخير ؟

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ

سَبْرُ التَّزَوُّلِ

قال ابن عباس : كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ : راعنا على جهة الطلب والرغبة من المراجعة ، أي التفت إلينا . وكان هذا بلسان اليهود سبا ، أي اسمع لا سمعت . فاعتنموها وقالوا : كنا نسبه سراً فالآن نسبه جهراً ، فكانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ويضحكون فيما بينهم ، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم فقال لليهود : عليكم لعنة الله . لكن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي ﷺ لأضربن عنقه فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت الآية ونهوا عنها لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد (١) وقولوا انظرنا : أمروا ان يخاطبوه ﷺ بالاجلال . والمعنى أقبل علينا وانظر إلينا (٢) .

في هذه الآية الكريمة نحن أمام حماقة أخرى من حماقات اليهود ، حيث انهم يخاطبون المصطفى ﷺ بطريقة ، لظاهرها معنى حسن قريب يريده المؤمنون ولا يريده اليهود ، ولباطنها معنى سيء بعيد يريده اليهود . وفرح اليهود لاستعمال المؤمنين تلك اللفظة لأنهم كانوا لا يجروؤن على مخاطبة المصطفى ﷺ بها جهاراً وحدهم . وحينما استعمالها المؤمنون وهم يريدون معناها الحسن استعمالها اليهود وهم يريدون معناها السيء . فهي الله تعالى المؤمنين عن استعمالها سداً للذريعة ومنعاً لليهود من استعمالها . وطلب منهم أن يسألوه ﷺ أن ينظر إليهم بمعنى أن يرعي حالهم . كما طلب منهم أن يسمعوا سماع تدبر والا يكونوا كاليهود الذين قيل لهم اسمعوا فقالوا سمعنا وعصينا . وللكافرين عذاب أليم وفي مقدمة هؤلاء اليهود الكافرون بنعم الله تعالى .

(١) تفسير القرطبي ص ٤٤٧ .

(٢) تفسير القرطبي ص ٤٥٠ .

﴿١٥﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ
عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

الكافرون فريقان من أهل الكتاب والمشركون. والآية الكريمة تنص على الباعث الحقيقي للكافرين بنوعهم على الوقوف من الدعوة إلى صراط العزيز الحميد موقف المناوىء. إنه الحسد. فهو لاء الكافرون يبغضون أن ينزل الله تعالى على المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ أي خير. والآية الكريمة تنص في المقابل على كونه جل وعلا، لحكمة يراها، يختص برحمته من يشاء من عباده، فقد خص المصطفى ﷺ برسالته، وبختم النبوة وبانزال القرآن الكريم عليه إلى غير ذلك من مظاهر فضله الذي انعكست آثاره على المؤمنين بإرادته جل وعلا، فلا راد لفضله جل وعلا، وليس من حق اليهود وغير اليهود أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله وليس من حق اليهود وغيرهم أن يريدوا الخير لأنفسهم وحدهم لأن فضل الله عظيم والله يختص برحمته وفضله من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا
أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

١٦

سبب النزول

سبب نزول الآية أن اليهود لما حسدوا المسلمين في التوجه إلى الكعبة، وطعنوا في الإسلام بذلك وقالوا: إن محمداً يأمر أصحابه بشيء ثم ينهاهم عنه، فما كان هذا القرآن إلا من جهته، ولهذا يناقض بعضه بعضاً، فأنزل الله: «وإذا بدلنا آية مكان آية» وأنزل: «ما ننسخ من آية^(١) والنسخ بمعنى الإبطال والازالة^(٢) قرأ الجمهور ما ننسخ بفتح النون من نسخ وهو الظاهر المستعمل على معنى ما نرفع من حكم آية ونبقى تلاوتها^(٣) وننسها بضم النون من النسيان، الذي بمعنى الترك أي نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها. قاله ابن عباس والسدي. ومنه قوله تعالى: نسوا الله فنسهم، أي تركوا عبادته فتركهم في العذاب. واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم^(٤).

ومعنى الآية الكريمة ما نرفع من حكم آية ونبقى تلاوتها، أو نتركها دون نسخ، لحكمة نراها ومصلحة للعباد نرعاها، نأت بخير منها «والمعنى بأنفع لكم أيها الناس في عاجل إن كانت النسخة أخف وفي آجل إن كانت أثقل. وبمثلها إن كانت مستوية»^(٥) ألم تعلم أيها المخلوق أن الله على كل شيء قدير؟ والجواب معلوم: إن الله على كل شيء قدير.

(١) تفسير القرطبي ص ٤٥١ .

(٢) تفسير القرطبي ص ٤٥١ .

(٣) تفسير القرطبي ص ٤٥٦ .

(٤) تفسير القرطبي ص ٤٥٧ .

(٥) تفسير القرطبي ص ٤٥٨ .

﴿١٧﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

الآية الكريمة استمرار للآية الكريمة السابقة التي ختمت بالقول : « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
على كل شيء قدير » أَنَّ اللَّهَ على كل شيء قدير . وإن الله لم ملك السماوات والأرض
وهو أعلم بمصلحة عباده وبما يتعبد عباده به من ناسخ ومنسوخ ولا يملك العباد سوى
الطاعة والامتثال لارادته جل وعلا الحكيم العليم ، وليس للعباد من دون الله تعالى من ولي
يتولى شئونهم ولا نصير ينصرهم .